

فَضْلٌ

دين الأنبياء واحد هو الإسلام

وَكَانَ دِينُهُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ: الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا غَيْرَهُ لَا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الْآخِرِينَ. وَهُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَنْ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ.

قَالَ النَّبِيُّ: ﴿وَأَتَى عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: يَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَانَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونُسُ: ٧١-٧٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ عَنِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ عَنِ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يُونُسُ: ١٠١].

وَقَالَ النَّبِيُّ عَنِ مُوسَى: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يُونُسُ: ٨٤]. وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ السَّحَرَةِ، أَنَّهُمْ قَالُوا الْفِرْعَوْنَ: ﴿وَمَا نَقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْتَ آمِنًا

يَأْتِيَتْ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُ رَبَّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿ [الاحزاب: ١٢٦] . وَقَالَ الْجَالِي عَنْ بَلْقَيْسَ مَلِكَةَ الْيَمَنِ: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

[المائدة: ٤٤]

وَقَالَ الْجَالِي عَنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ [المائدة: ٤٤] .

وَقَالَ الْجَالِي عَنِ الْمَسِيحِ: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ط فَالكَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ [الاحزاب: ٥٢]

وَقَالَ الْجَالِي: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِثِ أَنْ ءَامِنُوا بِرِسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١] .

فَهَذَا دِينُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعِبَادَتُهُ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، بِطَاعَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

فَلَا يَكُونُ عَابِدًا لَهُ مَنْ عَبْدَهُ بِخِلَافِ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ: كَالَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٢١] .

فَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا بِهِ إِلَّا مَنْ عَبْدَهُ بِطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا بِهِ، وَلَا عَابِدًا لَهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِجَمِيعِ رُسُلِهِ، وَأَطَاعَ مَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَيُطَاعَ كُلُّ رَسُولٍ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ الَّذِي بَعْدَهُ، فَتَكُونُ الطَّاعَةُ لِلرَّسُولِ الثَّانِي .

قَالَ الْجَالِي: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤] .

وَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ رُسُلِهِ فَأَمَّنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ كَانَ كَافِرًا، كَمَا قَالَ الْجَالِي: ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ

حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفِرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿النساء: ١٥٠-١٥٢﴾.

فَلَمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَهُ رَسُولٌ، وَلَا مَنْ يُجَدِّدُ الدِّينَ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقِيمُ لِتَجْدِيدِ الدِّينِ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا يَكُونُ مُقْتَضِيًّا لظُهُورِهِ، كَمَا وَعَدَ بِهِ فِي الْكِتَابِ، فَيُظْهِرُ بِهِ مَحَاسِنَ الْإِيمَانِ وَمَحَامِدَهُ، وَيَعْرِفُ بِهِ مَسَاوِيءَ الْكُفْرِ وَمَفَاسِدَهُ.

مِنْ أَسْبَابِ ظُهُورِ الْإِيمَانِ

أولاً - ظهور المعارضين للحق:

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ظُهُورِ الْإِيمَانِ وَالِدِّينِ، وَبَيَانِ حَقِيقَةِ أَنْبَاءِ الْمُرْسَلِينَ ظُهُورُ الْمَعَارِضِينَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ الْمُبِينِ.

كَمَا قَالَ التَّجَالِي: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلِنَصِّغْنِي إِلَيْهِ أَفْعَدَهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿الأنعام: ١١٢-١١٥﴾.

وَقَالَ التَّجَالِي: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُزُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوَلِّيَنِّي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانَا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿الأنعام: ٢٧-٣١﴾.

وَذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ إِذَا جُحِدَ وَعُورِضَ بِالشُّبُهَاتِ أَقَامَ اللهُ تَعَالَى لَهُ مِمَّا يُحِقُّ بِهِ الْحَقَّ، وَبُيْطَلُ بِهِ الْبَاطِلُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِمَا يُظْهِرُهُ مِنْ أَدَلَّةِ الْحَقِّ وَبَرَاهِينِهِ الْوَاضِحَةِ، وَفَسَادِ مَا عَارَضَهُ مِنَ الْحُجَجِ الدَّاحِضَةِ.

فَالْقُرْآنُ لَمَّا كَذَّبَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَاجْتَهَدُوا عَلَى إِبْطَالِهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ مَعَ أَنَّهُ تَحَدَّاهُمْ بِالْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، ثُمَّ بِالْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُورٍ، ثُمَّ بِالْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ، كَانَ ذَلِكَ مِمَّا دَلَّ ذَوِي الْأَلْبَابِ عَلَى عَجْزِهِمْ عَنِ الْمَعَارِضَةِ، مَعَ شِدَّةِ الْاجْتِهَادِ، وَقُوَّةِ الْأَسْبَابِ، وَلَوْ اتَّبَعُوهُ مِنْ غَيْرِ مُعَارِضَةٍ وَإِضْرَارٍ عَلَى التَّبْطِيلِ، لَمْ يَظْهَرْ عَجْزُهُمْ عَنْ مُعَارِضَتِهِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ الدَّلِيلُ.

وَكَذَلِكَ السَّحْرَةُ لَمَّا عَارَضُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَبْطَلَ اللهُ مَا جَاءُوا بِهِ، كَانَ ذَلِكَ مِمَّا بَيَّنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ صِدْقَ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا مِنَ الْفُرُوقِ بَيْنَ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَرَاهِينِهِمُ الَّتِي تُسَمَّى بِالْمُعْجَزَاتِ، وَيَبَيِّنُ مَا قَدْ يُشْتَبَهُ بِهَا مِنْ خَوَارِقِ السَّحْرَةِ، وَمَا لِلشَّيْطَانِ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ، فَإِنَّ بَيْنَ هَذَيْنِ فُرُوقًا مُتَعَدِّدَةً، مِنْهَا مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٣﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [التجول: ٢٢١-٢٢٢].

وَمِنْهَا مَا بَيَّنَّهُ فِي آيَاتِ التَّحَدِّيِّ، مِنْ أَنَّ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُعَارَضَ بِالمِثْلِ فَضْلًا عَنِ الْأَقْوَى، وَلَا يُمَكِّنُ أَحَدًا إِبْطَالُهَا بِخِلَافِ خَوَارِقِ السَّحْرَةِ وَالشَّيَاطِينِ؛ فَإِنَّهُ يُمَكِّنُ مُعَارَضَتَهَا بِمِثْلِهَا وَأَقْوَى مِنْهَا وَيُمَكِّنُ إِبْطَالُهَا.

ثانيًا- معارضة أعداء الحق بدعائهم الكاذبة:

وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَعْدَاءِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، الَّذِينَ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا إِذَا أَظْهَرُوا مِنْ حُجَجِهِمْ مَا يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَى دِينِهِمْ الْمُخَالَفِ لِذِي الرُّسُولِ، وَيُمَوِّهُونَ فِي ذَلِكَ بِمَا يُلْفَتُونَهُ مِنْ مَقُولٍ وَمَعْقُولٍ - كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ ظُهُورِ الْإِيمَانِ الَّذِي وَعَدَ بِظُهُورِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ بِالْبَيَانِ وَالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ثُمَّ بِالسَّيْفِ وَالْيَدِ وَالسَّنَانِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أُبَدِّلُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ .

[الشُّعْرَاءُ: ٢٢١-٢٢٢]

وَذَلِكَ بِمَا يُقِيمُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْآيَاتِ وَالذَّلَائِلِ الَّتِي يَظْهَرُ بِهَا الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْحَالِي مِنَ الْعَاطِلِ، وَالهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، وَالصُّدُقُ مِنَ الْمَحَالِ، وَالغَيِّ مِنَ الرَّشَادِ، وَالصَّلَاحُ مِنَ الْفَسَادِ، وَالْحَطَّاءُ مِنَ السَّدَادِ، وَهَذَا كَالْمِحْنَةِ لِلرِّجَالِ الَّتِي تُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَيِّثِ وَالطَّيِّبِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ .

[الْحَجَر: ١٧٩]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ آتَىٰ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الْعَنْكَبُوتُ: ١-٤].

وَالْفِتْنَةُ هِيَ الْإِمْتِحَانُ وَالْإِخْتِبَارُ، كَمَا قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٥٥].

أَيُّ امْتِحَانِكَ وَإِخْتِبَارِكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ خَالَفَ الرُّسُلَ وَتَهْدِي بِهَا مَنْ اتَّبَعَهُمْ. وَالْفِتْنَةُ لِلْإِنْسَانِ كَفِتْنَةِ الذَّهَبِ إِذَا أُدْخِلَ كَبِيرَ الْإِمْتِحَانِ، فَإِنَّهَا تُمَيِّزُ جِدَّهُ مِنْ رَدِيئِهِ، فَالْحَقُّ كَالذَّهَبِ الْخَالِصِ، كُلَّمَا امْتَحِنَ زَادَ جَوْدَةً، وَالْبَاطِلُ كَالْمَغْشُوشِ الْمُضِيِّ، إِذَا امْتَحِنَ ظَهَرَ فَسَادُهُ.

فَالَّذِينَ الْحَقُّ كُلَّمَا نَظَرَ فِيهِ النَّاطِرُ، وَنَاطَرَ عَنْهُ الْمُنَاطِرُ، ظَهَرَتْ لَهُ الْبَرَاهِينُ، وَقَوِيَ بِهِ الْيَقِينُ، وَازْدَادَ بِهِ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْرَقَ نُورُهُ فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ.

وَالَّذِينَ الْبَاطِلُ إِذَا جَادَلَ عَنْهُ الْمُجَادِلُ، وَرَامَ أَنْ يُقِيمَ عُدَّةَ الْمَائِلِ، أَقَامَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ يَفْزِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ صَاحِبَهُ الْأَحْمَقَ كَاذِبٌ

مَائِقٌ ^(١)، وَظَهَرَ فِيهِ مِنَ الْقُبْحِ وَالْفَسَادِ، وَالْحُلُولِ ^(٢)، وَالِاتِّحَادِ ^(٣)، وَالتَّنَاقُضِ وَالِاتِّحَادِ، وَالْكَفْرِ، وَالضَّلَالِ، وَالْجَهْلِ وَالْمُحَالِ، مَا يَظْهَرُ بِهِ لِعُمُومِ الرِّجَالِ أَنَّ أَهْلَهُ مِنْ أَصْلِ الضَّلَالِ، حَتَّى يَظْهَرَ فِيهِ مِنَ الْفَسَادِ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ الْعِبَادِ، وَيَتَّبَعَهُ بِذَلِكَ مِنْ سِنَةِ الرُّفَادِ مَنْ كَانَ لَا يُمَيِّزُ الْغَيَّ مِنَ الرَّشَادِ، وَيَحْيَا بِالْعِلْمِ وَالِإِيمَانِ مَنْ كَانَ مَيَّتَ الْقَلْبِ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرَ الْمُعْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، فَإِنَّ مَا ذَمَّ اللَّهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي كِتَابِهِ مِثْلَ تَكْذِيبِ الْحَقِّ الْمُخَالِفِ لِلْهَوَى، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنْ قَبُولِهِ، وَحَسَدِ أَهْلِهِ، وَالْبَغْيِ عَلَيْهِمْ، وَاتِّبَاعِ سَبِيلِ الْغَيِّ، وَالْبُخْلِ، وَالْجُبْنِ، وَقَسْوَةِ الْقُلُوبِ، وَوَصَفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمِثْلِ عُيُوبِ الْمَخْلُوقِينَ، وَتَفَاضُلِهِمْ، وَجَحْدِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ الَّتِي لَا يُمِثِّلُهُ فِيهَا مَخْلُوقٌ، وَبِمِثْلِ الْغُلُوفِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالِإِشْرَاقِ فِي الْعِبَادَةِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْقَوْلِ بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ الَّذِي يَجْعَلُ الْعَبْدَ الْمَخْلُوقَ هُوَ رَبُّ الْعِبَادِ، وَالْخُرُوجِ فِي أَعْمَالِ الدِّينِ عَنْ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْعَمَلِ بِمُجَرَّدِ هَوَى الْقَلْبِ وَذَوْقِهِ وَوَجْدِهِ فِي الدِّينِ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعِ الْعِلْمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ، وَاتِّخَاذِ أَكَابِرِ الْعُلَمَاءِ، وَالْعِبَادِ أَرْبَابًا يُتَّبَعُونَ فِيمَا يَتَّبَعُونَهُ مِنَ الدِّينِ الْمُخَالِفِ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَمَا قَالَ الْعَالِمُ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التَّوْبَةُ: ٣٢].

(١) المائق: الغبي، الأحمق.

(٢) الحلول: هو تجسد الخالق في المخلوق بحلولة في بدنه أو بعض بدنه، أو امتزاجه فيه امتزاجاً كاملاً، وهي عقيدة الصوفية والشيعة وغيرهما.

(٣) الاتحاد: أن يتحد الخالق مع المخلوق فلا فارق بينهما، وهي من أبرز عقيدة الصوفية أو غلاتهم.

وَمُخَالَفَةِ صَرِيحِ الْمَعْقُولِ وَصَحِيحِ الْمُنْقُولِ، بِمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مِنَ التَّنَزُّلَاتِ الْإِلَهِيَّةِ،
وَالْفُتُوْحَاتِ الْقُدْسِيَّةِ، مَعَ كَوْنِهِ مِنْ وَسَاوِسِ اللَّعِينِ، حَتَّى يَكُونَ صَاحِبَهَا مِمَّنْ قَالَ اللهُ
فِيهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وَقَالَ الْعَالِي: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَلَّا لَتَنصُرُنَّ بِلَهُمْ أُضْلُ﴾.

[الإعراف: ١٧٩]

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالَاتِ، الَّتِي ذَمَّ اللهُ بِهَا أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ، فَإِنَّهَا مِمَّا
حَذَّرَ اللهُ مِنْهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْأَخْيَارَ، وَجَعَلَ مَا حَلَّ بِهَا عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ.

ثالثاً- التحذير من اتباع بدع اليهود والنصارى:

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهَا فِي بَعْضِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ
أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي أُمَّتِهِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ عَلَى الْحَقِّ، لَا يُضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ
خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ^(١)، وَأَنَّ أُمَّتَهُ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ^(٢)، وَلَا يَغْلِبُهَا مَنْ سِوَاهَا مِنَ
الْأُمَّمِ، بَلْ لَا تَزَالُ مَنْصُورَةً مُتَّبِعَةً لِنَبِيِّهَا الْمَهْدِيِّ الْمَنْصُورِ^(٣).

(١) حديث: «لا تزال في أمتي أمة قائمة بأمر الله» حديث متواتر، وقد خرجته مطولاً في غير هذا
الموضع، وانظر ما رواه البخاري (٣٤٦١، ٧٣١٢، ٧٤٦٠) ومسلم [١٠٣٧] وأحمد (١٠١/٤)
عن معاوية.

وما رواه أحمد (٢٤٤/٤، ٢٤٨) والبخاري (٣٦٤٠، ٧٣١١، ٧٤٥٩) ومسلم [١٩٢١] عن
الغيرة بن شعبة.

وما رواه أحمد (٢٧٨/٥) ومسلم [١٩٢٠] والترمذي [٢٢٣٠] وابن ماجه [١٠] عن ثوبان- وما
رواه مسلم [١٩٢٣] من جابر بن عبد الله، وما رواه مسلم [١٧٤] عن جابر بن سمرة، وما رواه
مسلم [١٩٢٤] عن عقبة بن عامر- وغيرهم.

(٢) سيأتي بلفظه وتخرجه.

(٣) جزء من الحديث المتواتر السابق.

لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَنْ يَتَّبِعُ سَنَنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالرُّومِ وَالْمَجُوسِ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوِ الْقِدَّةِ بِالْقِدَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ: «فَمَنْ؟»^(١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيضًا، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَتَأْخُذَ أُمَّتِي مَا خَذَ الْأُمَمُ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَارِسَ وَالرُّومَ، قَالَ: «فَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أَوْلَئِكَ»^(٢).

وَفِي الْمُظْهِرِينَ لِلْإِسْلَامِ مُنَافِقُونَ، وَالْمُنَافِقُونَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ تَحْتَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ فَلِهَذَا كَانَ مَا دَمَّ اللَّهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَدْ يُوجَدُ فِي الْمُنَافِقِينَ الْمُتَسَيِّبِينَ لِلْإِسْلَامِ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَيُبْطِنُونَ خِلَافَ ذَلِكَ كَالْمَلَا حِدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ^(٣)، فَضَلًّا عَمَّنْ يُظْهِرُ الْإِلْحَادَ مِنْهُمْ.

وَيُوجَدُ بَعْضُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِدْعِ، مِمَّنْ هُوَ مُقَرَّرٌ بِعُمُومِ رِسَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، لَكِنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَا اشْتَبَهَ عَلَى هَؤُلَاءِ، فَاتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ، وَتَرَكَ الْمُحْكَمَ كَالْحَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ.

(١) رواه أحمد (٨٣٠٨، ٨٣٤٠، ٨٤٣٣، ٨٨٠٥، ٨٨٠٦) والبخاري [٧٣١٩]، وتفرّد به دون مسلم، وليس فيه «حذو القذة بالقذة».

(٢) أخرجه البخاري [٣٤٥٦] ومسلم [٢٦٦٩] وأحمد (٨٤/٣) والطيالسي [٢١٧٨]. وأخرجه عبد الرزاق [٢٠٧٦٣] وأحمد (٢١٨/٥) والحميدي [٨٤٨] والطيالسي [١٣٤٦] وابن أبي شيبة (١٠١/١٥) والترمذي [٢١٨٠] وأبو يعلى [١٤٤١] وابن حبان [٦٧٠٢] عن أبي واقد الليثي. وفي البخاري أيضًا حديث شداد بن أوس في «المسند» (١٢٥/٤) وسهل بن سعد وهو في «المسند» (٣٤٠/٥).

(٣) الباطنية: عدة فرق من فرق الشيعة الغلاة، ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر، مثل هذه الفرق: القرامطة، الخرمية، البابكية، الإسماعيلية، والسبعية وغيرهم.

وَلِلنَّصَارَى فِي صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاتِّحَادِهِ بِالمَخْلُوقَاتِ ضَلَالٌ شَارَكَهُمْ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ، بَلْ مِنْ المَلَا حِدَةِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ ضَلَالًا مِنَ النَّصَارَى.

أنواع الحلول والاتحاد

وَالْحُلُولُ وَالإِتِّحَادُ نَوْعَانِ: عَامٌّ، وَخَاصٌّ.

فَالْعَامُّ: كَالَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ بَدَأَتْهُ حَالٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ، أَوْ إِنَّ وُجُودَهُ عَيْنٌ وَوُجُودِ المَخْلُوقَاتِ.

وَالخَاصُّ: كَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِالحُلُولِ وَالإِتِّحَادِ فِي بَعْضِ أَهْلِ البَيْتِ، كَعَلِيٍِّّ، وَغَيْرِهِ، مِثْلَ النُّصَيْرِيَّةِ (١)، وَأَمْثَالِهِمْ، أَوْ بَعْضِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى أَهْلِ البَيْتِ كَالْحَاكِمِ (٢)، وَغَيْرِهِ، مِثْلَ الدَّرَزِيَّةِ (٣) وَأَمْثَالِهِمْ، أَوْ بَعْضِ مَنْ يُعْتَقَدُ فِيهِ المَشِيخَةُ، كَالْحَلَّاجِيَّةِ (٤)، وَأَمْثَالِهِمْ.

فَمَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَلٌّ، أَوْ اتَّحَدَ بِأَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَوْ القَرَابَةِ، أَوْ المَشَايخِ، فَهُوَ مِنْ هَذَا الوَجْهِ أَكْفَرُ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا بِالإِتِّحَادِ وَالحُلُولِ فِي المَسِيحِ، فَإِنَّ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ.

(١) النصيرية: فرقة من فرق الشيعة تنسب إلى محمد بن نصير البحيري، وهو من فقهاء الشيعة، وهي فرقة غالية جدًا، متطرفة جدًا، وهي تلقب بالعلوية الآن.

(٢) الحاكم: منصور بن نزار العبدي الفاطمي (الحاكم بأمر الله) كان سفاكًا للدماء قتل عددًا كبيرًا من أمثال الدولة.

(٣) الدرزية: فرقة من فرق الشيعة الغالية جدًا، ظهرت في بداية القرن الخامس الهجري في مصر في عهد الدولة الفاطمية التي هي أساس كل بلية، وبدعة. وهي تنسب إلى رجلين هما: محمد ابن إسماعيل تشتكين الدرزي، ومنصور أنوشتكين الدرزي، وأهم مواطنهم الآن سوريا ولبنان وفلسطين والمغرب، وعقيدتهم مستمدة من عقيدة الإسماعيلية الباطنة.

(٤) نسبة إلى الحسين بن منصور الحلاج، مدعي الحلول، أن الله حلَّ فيه، وتم الحكم عليه بالقتل لكفره سنة ٣٠٩ هـ.

وَمَنْ قَالَ بِالْحُلُولِ وَالِإِتِّحَادِ الْعَامِّ، فَضَلَّاهُ أَعْمٌ مِنْ ضَلَالِ النَّصَارَى، وَكَذَلِكَ مَنْ
قَالَ بِقِدَمِ أَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ، أَوْ أَعْمَاهُمْ، أَوْ كَلَامِهِمْ، أَوْ أَصْوَاتِهِمْ، أَوْ مِدَادِ مَصَاحِفِهِمْ، أَوْ
نَحْوِ ذَلِكَ، فَفِي قَوْلِهِ شُعْبَةٌ مِنْ قَوْلِ النَّصَارَى.

فَبِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ دِينِ النَّصَارَى وَبُطْلَانِهِ يُعْرَفُ بِهِ بُطْلَانُ مَا يُشْبِهُ أَقْوَاهُمْ مِنْ أَقْوَالِ
أَهْلِ الْإِتِّحَادِ وَالْبِدْعِ.

فَإِذَا جَاءَ نُورُ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ أَزْهَقَ اللَّهُ بِهِ مَا خَالَفَهُ، كَمَا قَالَ الْعَالِي: ﴿ وَقُلْ جَاءَ
الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الأنعام: ٨١].

وَأَبَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ فَضَائِلِ الْحَقِّ وَمَحَاسِنِهِ مَا كَانَ بِهِ مُحْفُوقًا.



سبب تأليف الكتاب

وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ نَصْرِ الدِّينِ وَظُهُورِهِ، أَنَّ كِتَابًا وُردَ مِنْ قُبْرُصَ فِيهِ الإِخْتِجَاجُ لِدِينِ النَّصَارَى، بِمَا يَحْتَجُّ بِهِ عُلَمَاءُ دِينِهِمْ وَفُضَلَاءُ مِلَّتِهِمْ، قَدِيمًا، وَحَدِيثًا مِنَ الْحُجَجِ السَّمْعِيَّةِ، وَالْعَقْلِيَّةِ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ نَذْكُرَ مِنَ الْجَوَابِ مَا يَحْصُلُ بِهِ فَضْلُ الْخِطَابِ، وَبَيَانُ الْخِطَابِ مِنَ الصَّوَابِ؛ لِيَتَفَعَّ بِذَلِكَ أَوْلُو الْأَلْبَابِ، وَيَظْهَرَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ مِنَ الْمِيزَانِ، وَالْكِتَابِ.

وَأَنَا أَذْكُرُ مَا ذَكَرُوهُ بِالْفَاطِمِ بِأَعْيَانِهَا فَضْلًا فَضْلًا، وَأَتَّبِعُ كُلَّ فَضْلٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الْجَوَابِ فَرَعًا وَأَصْلًا، وَعَقْدًا وَحَلًّا.

وَمَا ذَكَرُوهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ هُوَ عُمْدَتُهُمُ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا عُلَمَاءُ هُمْ فِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ، وَقَبْلَ هَذَا الزَّمَانِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَزِيدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِحَسَبِ الْأَحْوَالِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ وَجَدْنَا هُمْ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَيَتَنَاقَلُهَا عُلَمَاءُ هُمْ بَيْنَهُمْ، وَالنُّسْخُ بِهَا مَوْجُودَةٌ قَدِيمَةٌ، وَهِيَ مُضَافَةٌ إِلَى بُولِصِ ^(١) الرَّاهِبِ أَسْقَفِّ ^(٢) صَيْدَا ^(٣) الْأَنْطَاكِيِّ، كَتَبَهَا إِلَى بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ، وَلَهُ مُصَنَّفَاتٌ فِي نَصْرِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا سَافَرَ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ ^(٤)

(١) بولص الرّاهب: أسقف صيدا الأنطاكي، عاش في حوالي القرن الثاني عشر الميلادي، وعُين في أخريات حياته أسقفًا لصيدا، وهو غير بولص المشهور عند النصارى والذي كان يهوديًا وكان اسمه (شاول) ثم انتقل للنصرانية ليفسدها.

(٢) الأسقف: الدرجة العليا في الكهنوت، وهو كاهن ذو رتبة كبيرة، مثل تقديم القرايين، وفي الكنيسة يعتبر نائب المسيح، وله حق الرياسة على جميع الكهنة.

(٣) صيدا: مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهي اليوم إحدى مدن لبنان في الجنوب.

(٤) الروم: من ولد روم بن عيصو بن إسحاق، غلب اسم أبيهم عليهم فصار كالاسم للقبيلة، كانت لهم بلاد واسعة تضاف إليهم.

وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةَ^(١) وَبِلَادِ الْمَلَاظَةِ^(٢) وَبَعْضِ أَعْمَالِ الْإِفْرَنْجِ وَرُومِيَّةَ^(٣)، وَاجْتَمَعَ بِأَجْلَاءِ
 أَهْلِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَفَاوَضَ أَفَاضِلَهُمْ، وَعُلَمَاءَهُمْ، وَقَدْ عَظَّمَ هَذِهِ الرَّسَالَةَ، وَسَمَّاها
 (الْكِتَابُ الْمَنْطِقِيُّ الدَّوْلَةُ خَانِي الْمُبْرَهِنْ عَنِ الْإِعْتِقَادِ الصَّحِيحِ، وَالرَّأْيِ الْمُسْتَقِيمِ).



(١) القسطنطينية: كان اسمها بزنطية فنزلها قسطنطين الأكبر وبنى عليها سوراً وسمّاها باسمه، وتسمى بعد ذلك أسطنبول، وسمّاها محمد الفاتح (إسلام بول).

(٢) الملاظطة: لعلها البلاد التي كان يسكنها أفلاطون أو تابعة له في فكره وتبنت معتقداته. والله أعلم.

(٣) رومية: هي بلاد الروم أو روما التي أخبر النبي ﷺ أن المسلمين سيفتحونها إن شاء الله.

الدعاوى التي جاءت في رسالة بولس الأنطاكي

وَمَضْمُونُ ذَلِكَ سِتَّةُ فُصُولٍ:

الفصل الأول- دَعَوَاهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُبْعَثْ إِلَيْهِمْ بَلْ إِلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَرَبِ، وَدَعَوَاهُمْ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَالْعَقْلُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ.

الفصل الثاني- دَعَوَاهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَثْنَى فِي الْقُرْآنِ عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَمَدَحَهُ بِمَا أَوْجَبَ لَهُمْ أَنْ يَثْبُتُوا عَلَيْهِ.

الفصل الثالث- دَعَوَاهُمْ أَنَّ نُبُوءَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، كَالْتَّوْرَةِ وَالزَّبُورِ وَالْإِنْجِيلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النُّبُوءَاتِ تَشْهَدُ لِدِينِهِمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقَانِيمِ (١)، وَالتَّثْلِيثِ (٢)، وَالْإِتِّحَادِ (٣)، وَغَيْرِ ذَلِكَ، بِأَنَّهُ حَقٌّ وَصَوَابٌ، فَيَجِبُ التَّمَسُّكُ بِهِ، وَلَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهُ إِذَا لَمْ يِعَارِضْهُ شَرْعٌ يَرْفَعُهُ، وَلَا عَقْلٌ يَدْفَعُهُ.

وَالْفَصْلُ الرَّابِع- فِيهِ تَقْرِيرُ ذَلِكَ بِالْعُقُولِ، وَأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّثْلِيثِ ثَابِتٌ بِالنَّظَرِ الْمَعْقُولِ، وَالشَّرْعِ الْمَنْقُولِ، مُوَافِقٌ لِلْأَصُولِ.

وَالْفَصْلُ الْخَامِس- دَعَوَاهُمْ أَنَّهُمْ مُوحِّدُونَ، وَالْإِعْتِدَارُ عَمَّا يَقُولُونَهُ مِنْ أَلْفَاظٍ يَظْهَرُ مِنْهَا تَعَدُّدُ الْأَلْهَةِ، كَأَلْفَاظِ الْأَقَانِيمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ مَا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي يَظْهَرُ مِنْهَا التَّشْبِيهُ وَالتَّجْسِيمُ (٤).

وَالْفَصْلُ السَّادِس- أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِغَايَةِ الْكَمَالِ، فَلَا حَاجَةَ بَعْدَ النَّهَائِيَّةِ إِلَى شَرْعٍ يَزِيدُ عَلَى الْغَايَةِ، بَلْ يَكُونُ مَا بَعْدَ ذَلِكَ شَرْعًا غَيْرَ مَقْبُولٍ.

(١) الأَقَانِيم: جمع أقنوم وهي كلمة سريانية معناها شخص أساسي، أو شخص رئيسي - والكنائس الشرقية تفضل استعمال لفظ أقنوم لأن معناه في التثليث الكيان الذاتي.

(٢) التثليث - وهو معتقد النصارى أن الله سبحانه - مثلث الأَقَانِيم واحد الجوهر.

(٣) الإِتِّحَاد - هو أن الله اتحد بذاته في جميع خلقه، كما سبق بيانه.

(٤) هم الذين يجسمون الصفات، ولعل هذا التجسيم عند الكلام على الصفات فيعبر عنها بحركات الأيدي.

منهج المؤلف في الرد عليهم

وَنَحْنُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ نُبَيِّنُ أَنْ كُلَّ مَا اخْتَجَّوْا بِهِ مِنْ حُجَّةٍ سَمِعِيَّةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ مِنْ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى الْقُرْآنِ، أَوْ عَقْلِيَّةٍ، فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، بَلِ الْكُتُبُ كُلُّهَا مَعَ الْقُرْآنِ وَالْعَقْلِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، لَا لَهُمْ، بَلْ عَامَّةٌ مَا يَخْتَجُّونَ بِهِ مِنْ نُصُوصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمِنْ الْمَعْقُولِ فَهُوَ نَفْسُهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَيُظْهَرُ مِنْهُ فَسَادُ قَوْلِهِمْ مَعَ مَا يُفْسِدُهُ مِنْ سَائِرِ النَّصُوصِ النَّبَوِيِّ، وَالْمَوَازِينِ الَّتِي هِيَ مَقَائِيسُ عَقْلِيَّةٌ.

وَهَكَذَا يُوجَدُ عَامَّةٌ مَا يَخْتَجُّ بِهِ أَهْلُ الْبِدْعِ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي تِلْكَ النَّصُوصِ مَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا، بَلْ هِيَ بَعِيْنُهَا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، كَمَا ذَكَرَ أَمْثَالَ ذَلِكَ فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ.

وَإِنَّمَا عَامَّةٌ مَا عِنْدَ الْقَوْمِ الْأَفَاطِ مُتَشَابِهَةٌ، تَمَسَّكُوا بِهَا ظَنُّوْهَا تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَعَدَلُوا عَنِ الْأَلْفَاطِ الْمُحْكَمَةِ الصَّرِيحَةِ الْمُبَيِّنَةِ، مَعَ مَا يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ مِنَ الْأَهْوَاءِ.

وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ الْعَالِي: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۗ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [البقرة: ٢٣].

فَهُمْ فِي جَهْلٍ وَظُلْمٍ، كَمَا قَالَ الْعَالِي: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ [الأنعام: ٧٢-٧٣].

فَالْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ هُمْ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ بُعِثُوا بِالْعِلْمِ وَالْعَدْلِ، كَمَا قَالَ الْعَالِي: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿ [الجن: ١-٤].

فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ ضَالًّا جَاهِلًا، وَلَا غَاوِيًّا مُتَّبِعًا هَوَاهُ، وَلَا يَنْطِقُ عَنْ هَوَاهُ، إِنَّمَا نُطْقُهُ وَحْيٌ أَوْحَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَالَ النَّبِيُّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [التَّوْبَةُ: ٢٨].

فَالْهُدَىٰ يَتَضَمَّنُ الْعِلْمَ النَّافِعَ، وَدِينُ الْحَقِّ يَتَضَمَّنُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَمَبْنَاهُ عَلَى الْعَدْلِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

[الْحَدِيدُ: ٢٥]

وَأَصْلُ الْعَدْلِ الْعَدْلُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ عِبَادَتُهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَإِنَّ الشَّرْكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ، كَمَا قَالَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

[لُقْمَانَ: ١٣]

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الْآيَةَ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ الشَّرْكَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ؟» (١).

وَلَمَّا كَانَ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ، كَانَ كَلَامُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ مَعَ الْكُفَّارِ، وَأَهْلِ الْبِدْعِ بِالْعِلْمِ وَالْعَدْلِ، لَا بِالظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ؛ وَهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْقِضَاءُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَىٰ بِهِ

(١) أخرجه الطيالسي [٢٧٠] وأحمد (٣٨٧/١) والبخاري (٣٢)، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧، ومسلم [١٢٤] والترمذي [٣٠٦٧] وابن حبان [٢٥٣] والطبري (٧/٢٥٥) وابن منده في «الإبان» (٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧) من طرق عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود، به.

فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَىٰ بِخِلَافِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَىٰ لِلنَّاسِ عَلَىٰ جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ»^(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

فَإِذَا كَانَ مَنْ يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْدِّمَاءِ وَالْأَعْرَاضِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا عَادِلًا، كَانَ فِي النَّارِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَحْكُمُ فِي الْمَلَلِ، وَالْأَدْيَانِ، وَأُصُولِ الْإِيمَانِ، وَالْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْمَعَالِمِ الْكُلِّيَّةِ بِلَا عِلْمٍ، وَلَا عَدْلِ؟ كَحَالِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَالْأَهْوَاءِ، الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِالْمُتَشَابِهِ^(٢) الْمَشْكُوكِ، وَيَدْعُونَ الْمُحْكَمَ^(٣) الصَّرِيحَ مِنْ نُصُوصِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَتَمَسَّكُونَ بِالْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ الْمُتَشَابِهِ فِي الْمَقَائِسِ وَالْآرَاءِ، وَيَعْرِضُونَ عَمَّا بَيْنَهُمَا مِنَ الْفُرُوقِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْإِلْحَاقِ وَالِاسْتِثْوَاءِ، كَحَالِ الْكُفَّارِ، وَسَائِرِ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ الْمَخْلُوقَ بِالْحَالِقِ، وَالْحَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، وَيَضْرِبُونَ لِلَّهِ الْمَثَلَ بِالْقَوْلِ الْهَزْءِ.



(١) صحيح: رواه أبو داود [٣٥٧٣] والترمذي [١٣٢٢] وابن ماجه [٢٣١٥] والطبراني في «الكبير» [١١٥٤] والطحاوي في «شرح المشكل» (٥٤، ٥٥) والبيهقي (١١٦/١٠) والحاكم (٩٠/٤) وهو حديث صحيح من حديث بُريدة، وله شاهد من حديث ابن عمر.

(٢) المتشابه - التشابه التماثل، والتناسب، والقرآن كله متشابه يصدق بعضه بعضًا ويشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة.

(٣) المحكم: المتقن، والإحكام الإلتقان، والفارق بين المحكم والمتشابه: المحكم: ما عرف المراد منه - أو ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا.

والمتشابه: ما لا يستقل بنفسه، أو هو محتاج إلى غيره في البيان، أو مما استأثر الله بعلمه.